تاريخ اهتمام الانكليز بالعلوم العربية

بقلم الدكتور برنارد لويس

تاريخ اهتمام الانكليز بالعلوم العربية

بقلم الدكتور برنارد لويس



منظر رائع للمتحف البريطانى بلندن

(١) القرون الوسطى



العلماء مدة طويلة يعتقدون أن أول اتصال هام بين الثقافة الاسلامية وثقافة الفرنجة كان نتيجة للحروب الصليبية . وفى الحقيقة أن الحروب الصليبية كانت هى الفرصة الأولى التى سنحت بالاتصال الوثيق بين الشرق الاسلامى والغرب المسيحى ولا بد أنه حدث اذ ذاك تبادل ثقافى بين الفريقين . غير أن البحوث التاريخية الحديثة قد أثبتت ان ذلك التبادل الثقافى كان محدود المدى والأثر وهو أمر يتفق مع ما كان سائدا فى ذلك العصر من الروح الحربى . ولقد كان وصول حركة الفكر والعلوم العربية الى الغرب بصفة عامة والى انكلترا بصفة خاصة عن طريق آخر .

فبعد أن فتح العرب شمال افريقيا ساروا بانتصاراتهم الى اوروبا واستعمروا اقليمين هامين فى منطقة البحر الأبيض المتوسط مدة طويلة . فقد

أسس العرب فى اسبانيا وصقلية مدنية زاهرة أرقى كثيرا من أية مدنية معاصرة لها فى ذلك الوقت فى البلاد المسيحية وهى المدنية التى خلفت آثارا فى المدنيات المسيحية المعاصرة لها . حتى أنه بعد أن استعاد المسيحيون سيادتهم على تلك البلاد ظلت العلوم العربية مزدهرة مدة من الزمن . وكان من الملوك المسيحيين من يتكلم العربية ويوازر علماء العرب . وقد شرعت الثقافة العليا للعرب تنفذ الى بلاد الفرنجة منذ عهد مبكر . فقد كان المسيحيون الذين يتكلمون العربية من أهل اسبانيا يتمتعون بنفوذ قوى . كما أن يهود اسبانيا وصقلية الذين كانوا يتكلمون العربية والذين كانوا يشاركون أهل دينهم من الفرنجة لغة أخرى هى العبرية . قد ساعدوا كذلك مساعدة كبيرة فى نشر العلوم العربية فى الغرب ولقد نخص بالذكر هنا العالم الفيلسوف الأسبانى اليهودى ابراهيم بن عزرا من مدينة طوليدو . الذى زار لندن فى سنة ١١٥٨ وسنة ١١٥٩ ودرس هناك حقبة من الزمن . كما نذكر عالما انكليزيا هو توماس برون (Thomas Brown) الذى كان قاضيا فى صقلية والذى ورد ذكره فى الوثائق العربية باسم القاضى برون .

وفى القرن الثانى عشر شرع العلماء من البلاد الشمالية وخاصة من انكلترا يزورون الجامعات العربية فى اسبانيا للبحث عن العلوم والمعارف . وكان أول هؤلاء العلماء وأعظمهم العالم الانكليزى ادلارد (Adelard) من مدينة باث أحد السابقين الى نشر الثقافة العربية فى الغرب . فقد قام ادلارد بأسفار واسعة فى اسبانيا وسوريا فى الربع الأول من القرن الثانى عشر لدراسة اللغة العربية والعلوم العربية . وقد ترجم الى اللاتينية كثيرا من الكتب العربية لينتفع بها معاصروه المسيحيون . وعند عودته اشتغل معلما للأمير هنرى الذى أصبح فيما بعد الملك هنرى الثانى ملك انكلترا والى هذا الملك أهدى أدلارد أحد كتبه . وأهم كتبه التى ألفها — وهو كتاب «المسائل الطبيعية» — مكتوب على طريقة المحاورة بين أدلارد وابن أخيه . وكان ابن أخيه هذا قد درس فى جامعات الفرنجة فى الوقت الذى كان أدلارد فيه بين العرب وتدور المحاورة بينهما على المقارنة بين المذهبين العربى والفرنجى . ويقول أدلارد فى مقدمة الكتاب :—«أنا سأدافع عن مذهب العرب ولست أعبر عن رأيى



فى ظلال التأريخ والتقاليد : ركن من مبانى دار الكتب فى جامعة اكسفورد

الشخصى . » وهو يصر باسهاب على تفوق الطريقة العربية وقد ساعد مساعدة عظيمة بنفوذه على انتشارها فى الغرب . وقد ترجم عددا من المؤلفات العربية فى علم الفلك والعلوم الرياضية . وبذلك وسع نمو هذه العلوم فى أوروبا.

وقد ذهب بعد أدلارد الى اسبانيا كثير من علماء الانكليز . وهذا روبرت من مدينة تشستر فى القرن الثانى عشر كذلك درس العلوم الرياضية وترجم مؤلفات عربية . ومن الشخصيات الهامة دانيل أف مورلى (Daniel of Morley) الذى كان — بمقتضى ما ذكره عن نفسه — غير راض عن الجامعات الفرنجية فذهب الى اسبانيا «ليبحث عن من هم أكثر حكمة من فلاسفة العالم . » وقد عاد الى انكلترا بمجموعة كبيرة من الكتب وجدت عددا كبيرا من القراء . وفى القرن الثالث عشر درس ميخائيل سكت (Michael Scot) فى صقلية وبرع فى اللغتين العربية والعبرية . وقد ترجم كتب ارسطاليس من اللغة

العربيـة وكان هـذا أول عهـد الغرب بعدد كبير من هذه الكتب . وكذلك ترجم من العربية شروح كتب أرسطاليس التى كتبها العرب كما كتب كتبا هامة فى علم النجوم والكيمياء .

وكانت مؤلفات هؤلاء وغيرهم من العلماء الانكليز الذين اقتحموا الصعاب فى سبيل العلم بزيارة البلاد العربية ذات أثر ثقافى جليل . فلمجهوداتهم الفضل فى أن ما أنتجه العرب فى الفلسفة والعلوم أصبح معروفا فى انكلترا وفى البلاد الغربية وبذلك خطت الثقافة الأوروبية خطوة هامة فى سبيل ارتقائها . وكان الأثر الذى أحدثته ترجماتهم ومؤلفاتهم أثرا عظيما ومن بين أولئك الذين تأثروا تأثرا عميقا بالعلوم العربية ذلك الفيلسوف الانكليزى العظيم روجر بيكون والشاعران تشوسر ولدكيت . ومما يستحق الذكر أن أول كتاب طبع فى انكلترا — وهو كتاب «كلمات الفلاسفة وحكمهم» — كان مؤلفا على نسق كتاب عربى اسمه «كتاب مختار الحكم ومحاسن الكلم» الذى كان قد ألفه فى سنه ١٠٥٣ الأمير المصرى مبشر بن فاتك . ولم يطبع النص العربى لهذا الكتاب ولكن له نسخة مخطوطة فى هولانده . ويتألف الكتاب من مقتبسات وأمثال وقد كان فى وقت من الأوقات مشهورا جدا فى الشرق . وقد ترجم الى عدد كبير من اللغات الاوروبية .

وتحمل أوروبا فى القرون الوسطى دينا مزدوجا لمعاصريها من العرب ولمن قاموا بشرح كتبهم من علماء الغرب . فأولا كان العرب هم الواسطة التى انتقل بها الى اوروبا جزء كبير من ذلك الميراث الثمين الذى خلفه اليونان فى ميدان الفكر والعلوم . والذى بينما كان مفقودا فى الغرب كان العرب قد حافظوا عليه وتوسعوا فيه . وثانيا قد تعلمت أوروبا من العرب طريقة جديدة للبحث طريقة وضعت العقل فوق السلطة ونادت بوجوب البحث المستقل والتجربة . وقد كان لهذين الدرسين الفضل الكبير فى القضاء على العصور الوسطى والايذان بعصر النهضة وبعث أوروبا الجديدة . ولعلماء الانكليز مقام رفيع فى تلقين هذين الدرسين . وانها لمأساة تاريخية أنه فى نفس ذلك الوقت شرع العرب ينسون تلك الأشياء التى علموها لأوروبا واضطروا لتعلمها ثانية بعد مضى عدة قرون .

ويحسن بنا أن نختم هذا الحديث بالاستماع الى أدلارد (الذى من مدينة باث) يخاطب ابن أخيه عن الطريقة التى تعلمها فى اسبانيا. ويجدر بنا أن نتذكر أن هذا كتب منذ ثمانية قرون مضت :—

«انني — وقائدى ودليلى هو العقل — قد تعلمت شيئا من أساتذتى العرب وأنت قد تعلمت شيئا مختلفا عنه. لقد بهرتك مظاهر السلطة فوضعت فى رأسك لجاما تقاد به. والا فبأى اسم آخر يمكننا ان نسمى السلطة سوى أنها لجام؟ فكما ان الحيوانات الضارية تقاد من مقودها حيث يشاء الانسان من غير ان تدرى لماذا تقاد ولا أين تقاد، وانما تتبع الحبل الذى يجرها — كذلك كثير منكم يرسف فى أغلال البساطة وتصديق كل ما يسمع ويقودكم الى الخطر سلطة الكتاب والمؤلفين . . . . . .ان الانسان قد منح العقل لكى يستخدمه حكما عاليا فى الفصل بين الحق والباطل . . . . . . ان علينا ان نبحث اول كل شىء عن العقل فاذا اهتدينا اليه — لا قبل ان نهتدى اليه — نبحث فى السلطة فان سايرت العقل قبلناها. ان السلطة وحدها لا تبعث فى نفس الفيلسوف ثقة ولا يجوز ان تستخدم السلطة لمثل هذا الغرض.»

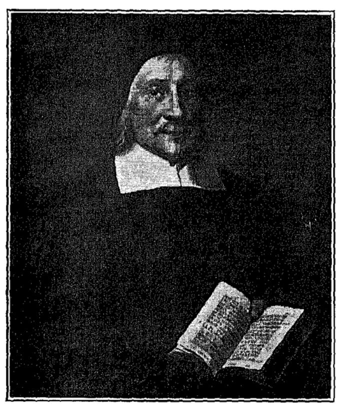
ان أولئك الذين يعرفون ما كتبه العرب يدركون لأول وهلة مصادر الدرس الذى تعلمه أدلارد. وان أولئك الذين يعرفون علوم الغرب يدركون لأول وهلة معنى هذا الدرس.



رأينا

(٢) نشأة الاستشراق

فى حديثنا الاول كيف انه فى القرون الوسطى ذهب طلبة العلم من الانكليز الى اسبانيا وصقلية ارتشافا من مناهل العلم العربية ورغبة فى نشر ما جمعوه من المعلومات بعد عودتهم الى بلادهم . ونعود الآن الى تطور جديد فى الدراسات العربية وهو ظهور أول من نسميهم بالمستشرقين بالمعنى الحديث . وقد حدثت تغييرات عظيمة فى السنين التى مضت بين الفترة التى درسناها فى المرة الاخيرة والفترة التى سنبحث فيها الآن . كانت اوروبا قد تقدمت تقدما يعتد به فى ميدانى العلم والعرفان على حين أن العرب كان قد زال تفوقهم السابق فلم تكن ثمة ضرورة اذن أن يجرى الطلبة الاوروبيون وراء المدرسين العرب ابتغاء الوقوف على المعلومات العامة . وهكذا نجد نوعا جديدا من الاستشراق وهو طالعة العلم الاستشراقى الحديث .

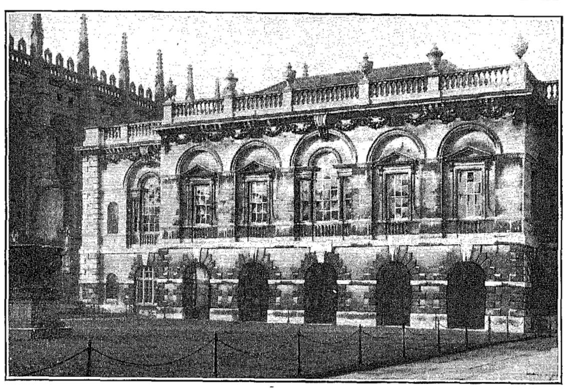


ادوارد بوكوك (Edward Pococke)

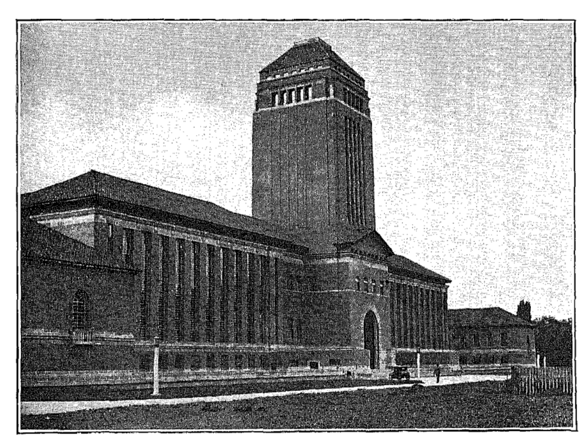
فيدرس الطالب الانكليزى الآن اللغة العربية لا ليتمكن المعلم العربى من تلقينه اياه فى الفلسفة العامة والعلوم بل طلبا للثقافة العربية بذاتها فقام الانكليز للمرة الأولى بدرس اللغة العربية والأدب العربى درسا جديا وكانت أعمالهم كأعمال المستشرقين الحديثين ذات فائدة للعـرب والافرنج على السـواء . وكانت تشتمل على جمع القواميس وكتب النحو العربية ونشر المخطوطات العربية وطبعها قبل أن تطبع فى الشرق كما تناولت البحث والتنقيب فى تاريخ العرب وأدبهم وما الى هنالك من الأعمال المماثلة . وبدأت هـذه الحركة تأخذ صورة عملية ملموسة فى القرن السابع عشر اذ فى هذا القرن أنشىء منصب للاستاذية فى اللغة العربية فى كل من الجامعتين الانكليزيتين العظيمتين أكسفورد وكمبردج . وقام أساتذة انكليز بتدريس اللغة العربية لعدد كبير من الطلبة المتلهفين على دراستها . وطبعت الكتب العربية فى انكلترا (بلاد الانكليز) لأول مرة . ويمكننا أن نتوسع فى بحثنا عن هؤلاء العلماء الذين انفردوا بهذا العمل التمهيدى .

فالرجل المعروف عامة فى انكلترا «بأبى الدراسات العربية » هو وليم بدول (William Bedwell) (١٥٦١-١٦٣٢) وقـد كتب مقـالة شـائـقـة أبـدى فيها أهمية اللغة العربية وضرورة دراستها . فذكر أنها هى لغة الدين الوحيدة وأهم لغة للسياسة والعمل من الجزائر السعيدة الى بلاد الصين . وأسهب فى ذكر قيمتها الادبية والعلمية . وقد حاز بدول هذا بعض الشهرة فى أيامه وذاع صيته كمستعرب فى كل انحاء أوروبا . وأهم أعماله جمعه معجما عربيا فى سبعة مجلدات لم ينشر لسوء الحظ . ويمكن أن نذكر ضمن مؤلفاته المطبوعة بعض النصوص العربية المطبوعة فى انكلترا ودراسات فى القرآن الكريم ومعجما يحوى المفردات العربية المستعملة فى اللغات الغربية منذ الأزمنة (البيزنطية) حتى أيام حياته .

ومن الشخصيات البارزة الأخرى ادموند كاستل (Edmund Castell) (١٦٠٦-١٦٨٥) وهو من أول أساتذة اللغة العربية فى كمبردج . وأعظم مؤلفاته قاموس مجمل للغات السامية قضى فى جمعه ثمانى عشرة سنة ونشر للمرة الأولى عام ١٦٦٩ . وقد وصف المؤلف فى مقدمته كده المتواصل الذى



ركن جميل من الابنية العتيقة لدار الكتب فى جامعة كمبردج



منظر عام يشير الى بهجة الاسلوب الجديد من فن المعمار الانكليزى :
الابنية الجديدة لدار الكتب فى جامعة كمبردج

استغرق ثمانيـة عشر عاما كان يعمل فيها يوميا مدة تتراوح بين الست عشرة والثـانى عشرة ساعة لم يغمض له فيها طرفة عين فتضعضع جسمه وقل ماله وهذا القاموس هو الأول من نوعه وكانت له أهمية كبرى بحيث أعيد طبعه عدة مرات فى انكلترا وأوروبا . وبين مؤلفات كاستل الأخرى رسالة عن قيمة الدراسات العربية وتعليق على ابن سينا . كما جمع فى مجلد أهداه لشارل الثانى ملك انكلترا أشعارا عربية الفها بنفسه .

وكان جون جريوز (John Greaves) (١٦٠٢-١٦٥٢) رياضيا مشهورا وشغل مرة منصب أستاذ الفلك فى أكسفورد وقد جاب أطراف الشرق الأدنى ولا سيما مصر وتوافر على دراسة العربية والفارسية دراسة جدية وحصل على مجموعة كبرى من المخطوطات والعملة والجواهر العربية والفارسية وقام بنشر كتاب صغير عن النحو الفارسى . على أنه وجه جل اهتمامه الى مؤلفات المسلمين فى العلوم الرياضية فنشر عددا من النصوص والدراسات فى هذا الموضوع . وقد حذا أخوه توماس جريوز (Thomas Greaves) حذوه فى معرفتـه للعربية والفارسية ونشر عنهـا بعض المؤلفات . ويمكن أن نذكر بين المستعربين فى القـرن السـابع عشر ابرهـام ويلـوك (Abraham Wheelock) أول استـاذ للعربيـة فى جامعـة كمبردج و صموئيل كلارك (Samuel Clarke) صاحب مقالة عن العروض العربى ومؤلف كتاب مفردات للأماكن ذات الأسماء العربيـة ثم بريان ولتون (Brian Walton) الـذى نشر التوراة بلغات شرقية متعددة و ددلى لفتوس (Dudley Loftus) وهو من علماء الارلنديين ومشترعيهم . ويضاف الى من سبق ذكرهم جون سلدن (John Seldén) (١٥٨٤-١٦٥٤) وهو من السياسيين والمتشرعين الذين لعبوا دورا هاما فى الحيـاة الانكليزية فى هذا العهـد أضف الى ذلك أنه كان على اطلاع عام بلغـات شرقية عدة منها العربيـة . وقـد نشر نصـا تاريخيا عربيا مع ترجمته وترك وراءه مجموعة كبرى من المخطوطات الشرقية .

ولا شك أن (Edward Pococke) ادورد بوكوك (١٦٠٤-١٦٩١) كان فارس حلبة المتضلعين فى العربية فى القرن السابع عشر وهو أول من شغل كرسى الأستاذية فى اللغة العربية فى أكسفورد وأول مستشرق أوروبى كان لمؤلفاته

أهمية كبرى . وقد بدأ بوكوك دراسته العربية فى سن مبكرة وكان استاذه بدول المشهور . كما تلقن العربية فى أكسفورد مدة قصيرة على يد مثيو باسور (Matthew Pasor) أحد المهاجرين الذين فروا من وجه الاضطهاد فى ألمانيا . وذهب عام (١٦٣٠) الى حلب حيث مكث خمس سنين تملك أثناءها ناصية العربية كتابة وكلاما وحصل على مجموعة طيبة من المخطوطات العربية أخذها معه عند رجوعه الى أكسفورد . وقد اتخذ له أصدقاء عديدين بين الحلبيين من أهمهم العلامة الشيخ فتح الله الذى علمه العربية وبقى على صداقته طول حياته .

وعند عودة بوكوك الى بلاد الانكليز عام ١٦٣٦ اسند اليه الكرسى الجديد لاستاذية اللغة العربية فى أكسفورد فقام بالقاء المحاضرات العربية فى الأدب والنحو . ويروى ان جميع الطلبة أجبروا على حضور محاضراته وافتتح الأستاذ الجديد بحثه بمحاضرة عن أهمية اللغة العربية وأدبها وقام بالقاء الحلقة الأولى من سلسلة محاضراته عن أقوال الامام على كرم الله وجهه .

وفى سنة (١٦٣٧) زار الشرق للمرة الثانية لاستزادة معلوماته وجمع مخطوطات أكثر فلاقى صاحبه القديم الشيخ فتح الله وعاد الى أكسفورد عام ١٦٤١ وخصص ما بقى من حياته للأشغال العلمية فى بلاد الانكليز . أما سفرته الثانية فكانت بصحبة الرياضى جون كريوز .

عاش بوكوك سنين طوالا فى أكسفورد حيث كان يتفيأ ظل شجرة التين المشهورة التى نقلها معه من سوريا والتى لا تزال أقدم شجرة من نوعها فى بلاد الانكليز . وألف عددا كبيرا من الكتب القيمة نذكر بعضها فيما يلى .

(١) (نموذج من تاريخ العرب) وهو مجتزىء من تاريخ أبى الفرج أردفه بسلسلة من الدراسات العربية المستفيضة فى مختلف نواحى التاريخ والعلوم والأدب والدين . وهذا الكتاب من أهم المؤلفات الاستشراقية التى بقى العالم مدة طويلة يعتد به ويعترف بأهميته وجرى طبعه فى أكسفورد عام ١٦٤٩ ثم طبع مرة ثانية عام ١٨٠٦ .

(٢) (لامية العجم) وهى طبعة نقدية لقصيدة الطغرائى العربية

المشهورة ضم اليها ترجمة وتفاسير وافية . وكان طبعها فى أكسفورد عام ١٦٦١ .

(٣) (مختصر فى الدول) وهو عبارة عن النص العربى الكامل لتاريخ أبى الفرج مع ترجمة له .

ان حياة بوكوك وأعماله تؤلف حلقة تاريخية فى الدراسات الشرقية الأوروبية وقد ذاعت شهرته فى أيامه كما اعترف بفضله العظيم جميع العلماء الذين خلفوه فى هذا الموضوع . وكانت ترد عليه الرسائل من كل أقطار أوروبا والشرق تستمد مساعدته ونصحه وقد وفد الى أكسفورد عدد عظيم من الطلبة من مختلف البلاد حتى من بلاد بعيدة كرومانيا لدرس اللغة العربية على يد استاذها الأعظم فى أوروبا حينذاك . ولم تنجب أوروبا من المستعربين أمثاله سوى العالم الهولاندى جوليوس (Golius) أستاذ اللغة العربية بجامعة ليدن الذى وصف بوكوك بأنه عديم الند لا يشق له غبار فى العلوم الشرقية .

وقد ترك فضلا عن ذلك عددا من المؤلفات الأخرى ومجموعة بلغت ٤٢٠ مخطوطة اقتنتها مكتبة بودلى (Bodley) فى أكسفورد بعد موته ولا تزال موجودة هناك مؤلفة جزءا ثمينا من القسم العربى فى المكتبة .

وقد عقب بوكوك وراءه ستة اولاد حذا أكبرهم سنا واسمه كاسم أبيه ادوارد بوكوك (Edward Pococke) (١٦٤٨-١٧٢٧) حذو أبيه فى معالجة الدراسات الشرقية . وبين مؤلفاته المنشورة طبعة غير كاملة وترجمة لكتاب عبد اللطيف فى تاريخ مصر وترجمة لمؤلف فلسفى عربى هام لابن الطفيل .

وهكذا كان القرن السابع عشر عصر تطور فى تاريخ دراسة العلوم العربية فى بلاد الانكليز . ويرجع هذا الشغف بالدراسات العربية الى عوامل عدة منها ولا شك العامل اللاهوتى المهم اذ أدرك الناس فى هذا الوقت ما هناك من صلة متينة بين العربية والعبرية فرجوا أن تؤدى دراسة العربية الى انارة كتاب العهد القديم من التوراة والأهم من ذلك نمو الشعور بأهمية الثقافة العربية العامة والتاريخ العربى . وقد شاهد القرن السادس عشر نهضة علمية من الدرجة الأولى تمخض عنها اهتمام جديد باللغات والدراسات

الأدبية فكان من الطبيعى أن ينتبه طلاب تاريخ الجنس البشرى ومدنيته الى الدور العظيم الذى يلعبه العالم العربى فى هذا الموضوع وان يحاولوا ضم ذلك الى منطقة معلوماتهم . فكتب كل من بدول و كاستل و بوكوك مقالات عن الأهمية العامة للغة العربية والحاجة الى دراستها من قبل الطلبة المتعمقين فى أبحاثهم . ويمكن أن نذكر أخيرا تجديد العلاقات التجارية والسياسية بين بلاد الانكليز والشرق الأدنى وما ترتب عن ذلك من فرص ومصالح جديدة مما مكن بوكوك من القيام بزيارتيه المثمرتين للشرق . وزاد هذا الاهتمام بالشرق واتسعت رقعته وليس أدل على هذا من أن شخصية عظيمة كالحبر لود (Laud) اهتم اهتماما شديدا بنشر الدراسات الشرقية وتعميمها فى بلاد الانكليز كما انه منح أول كرسى للأستاذية فى اللغة العربية فى جامعة أكسفورد وكان توازن القرن السابع عشر مدهشا بالرغم من الاضطراب الذى نجم من الحرب الأهلية . فأنشئت مراكز للدراسات العربية فى جامعتى أكسفورد وكمبردج ونشر عدد كبير من الكتب القيمة وأقيم علم جديد انتج فى القرن التالى سلسلة كاملة من الطلبة المبرزين الذين كان لمؤلفاتهم أثر كبير فى اخصاب التراث الثقافى العربى والأوروبى . وسنرجىء الكلام عن هؤلاء الى حديثنا القادم .

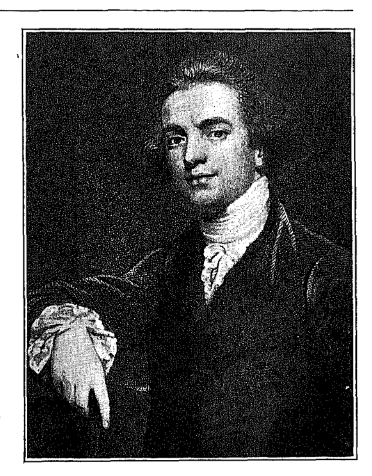


(٣) القرن الثامن عشر

ان بذور العلوم الشرقية التى كانت قد نثرت فى انكلترا فى القرن السابع عشر اينعت ثمارها فى السنين التى تلت . اذ انشىء فى اوائل القرن الثامن عشر، منصبان جديدان للاستاذية فى اللغة العربية فى جامعتى اكسفورد وكمبردج وبذلك فخرت كل من الجامعتين، اللتين تعدان أقدم الجامعات الانكليزية، بما لا يقل عن كرسيين من كراسى الاستاذية فى العربية . وانه ليضيق المقام عن الاسهاب فى ذكر كل فرد من اولئك الانكليز المستعربين، البارزين، والعديدين فى هذا القرن فما علينا اذن، الا ان نذكر من ذاعت شهرتهم فى زمانهم كاساتذة افاضل وبحاثين مجدين امثال هانط (Hunt) و وايت (White) و هايد (Hyde) وكانيه (Gagnier) و برون (Brown) و والس (Wallis) و فورد (Ford) . ومن المستعربين المشهورين ايضا بريدو (Prideaux) (١٦٤٨-١٧٢٤) وهو مؤلف تاريخ حياة النبى الكريم (صلى الله عليه وسلم) و جابلو (Chappelow) (١٦٨٣-١٧٦٨) الذى الف كتابا فى النحو العربى، والذى ترجم الى اللغة الانكليزية لامية العجم، ومقامات الحريرى، التى تعد من اصعب ذخائر الادب العربى. ولا يفوتنا ذكر كارليل (Carlyle) الذى تعلم العربية على يد سائح بغدادى فى كمبردج فترجم من العربية الى الانكليزية قصائد عدة تجدر بالاهتمام .

على ان بين مستعربى القرن الثامن عشر من الانكليز، اربعة ممن

لمؤلفاتهم اهمية خاصة، اذ هى تؤلف قسما من التراث العام، فى الثقافة الانكليزية وقد كان لها تأثير عظيم على ادباء الانكليز عامة .



السير وليم جونس (Sir William Jones)

واول هؤلاء هو سيمون اوكلى (Simon Ockley) (١٦٧٨-١٧٢٠) الذى درس العربية فى جامعتى اكسفورد وكبردج وكان معروفا حتى فى صباه بانه طالب ذو فطنة خارقة للعادة . وكان تلميذا فى اكسفورد للاستاذ المستعرب العظيم ادوارد بوكوك الذى اشرنا اليه فى حديثنا السابق . ويذكر اوكلى فى مقدمة احد كتبه بعبارات التجلة والاحترام، استاذه (العلامة الجليل الدكتور بوكوك — واصفا اياه قائلا زينة عصرنا وفخر امتنا، الذى اكرم ذكراه واحترمها —) وتسنم اوكلى نهائيا منصب استاذ اللغة العربية فى جامعة كبردج وكان ولعه بالعلوم العربية شديدا جدا، حتى انه حقا، اهمل الامور المادية مما انزل به وبافراد عائلته العديدين، فقرا مدقعا . وبالرغم من ضنيق ذات يده وصعوبات شخصية، فان اوكلى واصل عمله دون توان او فتور فى مجهوداته — واهم مؤلفاته، كتابه الذى سطره بالانكليزية فى ثلاثة مجلدت، عن تاريخ الاسلام، الثقافى والسياسى .

ونذكر بالاضافة الى هذا المؤلف، مقدمة عامة لدراسة اللغات الشرقية، وترجمة حى بن يقظان، لابن الطفيل، الى اللغة الانكليزية — ومؤلفه الاعظم

عن تاريخ الاسلام، يمثل اول محاولة، قدم فيها للقارىء الانكليزى، بشكل سلس مفهوم، وصف عام لما بلغته المدنية العربية من علو الكعب ورفعة المنزلة . وعلى حين ان المستعربين فى الجيل الماضى كانوا فئة ضئيلة لم يطلع على مؤلفاتهم الا المختصون بهذا الموضوع، قدم اوكلى هذا، لاول مرة، ثمار البحث الاستشراقى لجهود قراء الانكليزية، الذين علموا بذلك شيئا عن مجد الاسلام والعالم الاسلامى . وان تاريخ اوكلى هذا، وان كان من عدة وجوه غير مضبوط، او كان قديما، بالنظر الى التنقيب الحديث، فقد كان فى زمانه مجهودا قيما، رجع اليه وقدره الطلبة، والمؤرخون الاوروبيون عامة، نذكر بينهم المؤرخ الانكليزى العظيم جيبون (Gibbon) مؤلف تاريخ (اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها) . وقد نال اوكلى بفضل مؤلفه التاريخى هذا، منزلة سامية، دائمة فى الاداب الانكليزية .

وبرز فى هذا العصر ايضا مستعرب كبير هو جورج سيل (George Sale) (١٦٩٧-١٧٣٦)، الذى اشتد اهتمامه بالاسلام لدرجة حدت بالمؤرخ كيبون الذى مر ذكره، الى وصفه بأنه — نصف مسلم — وان هذا الوصف، وان كان فيه بعض المبالغة، ليعطينا فكرة عن منزلة سيل بين معاصريه . وكان سيل محاميا، درس العربية فى اوقات فراغه، وحصل على مجموعة لا يستهان بها من المخطوطات العربية . ومؤلفه الاهم، الذى يذكره الناس به، هو ترجمته القرآن الكريم، الى اللغة الانكليزية، التى نشرت عام ١٧٣٤ . وكانت هذه اول ترجمة كاملة بلغة اوروبية على الاطلاق — ولا يخفى على المسلمين عظم هذا العمل الجبار. وقد نجح سيل فى قيامه بهذا المجهود المنهك، وتذليله الصعوبات فى سبيله، بحيث ان كثيرا من خبراء يومنا هذا، يعتبرون ترجمته احسن ما يمكنهم الحصول عليه . ولا تزال ترجمته هذه كثيرة الاستعمال فى العصر الحاضر، وقد اعيد طبعها مرارا عدة . ومما يجدر بالذكر ان ترجمة القرآن الكريم الى اللغات الفرنسية، والالمانية، والبولندية بنيت على ترجمة سيل الانكليزية .

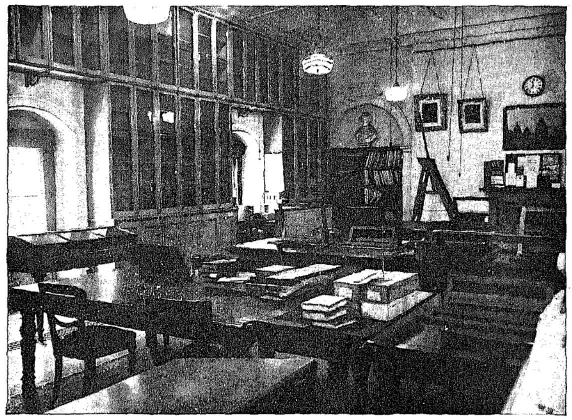
ولم يكن مجهود مؤلفنا هذا، مقصورا على ترجمة مجردة (ولو ان هذا فى ذاته عمل، ولا شك، يتطلب علما عظيما) — بل انه يشمل ايضا شروحا تفسيرية

وحواشي عدة، سهلت على القراء الانكليز، كثيرا من الفقرات التي لو لا تلك التفاسير والشروح، لغمضت عليهم، كما تشتمل جهوده ايضا على مقدمة مسهبة، هي في الحقيقة بمثابة مقالة ضافية عن الدين الاسلامي عامة.

وكثيرا ما عاد ادباء القرن الثامن عشر الى ترجمة سيل اذ عدوها مرجعهم الوحيد، الذي منه يستقون المعلومات عن كتاب الاسلام المقدس، وعن القائم برسالة الدين الاسلامي، النبي الكريم (صلعم). وقد درست تلك الترجمة بتوسع في القارة الاوروبية، بدليل ان فولتير (Voltaire) ذكرها في مؤلفه (القاموس الفلسفي).

ومن بين كتابات سيل الاخرى، يمكن ان نذكر اشتراكه مع بيل (Bayle) في جمع دائرة المعارف، التي تعد اول دائرة معارف اوروبية حديثة. وقد سطر فيها كل المقالات التي تبحث في مواضيع تتعلق بالعرب.

ومستشرقنا الثالث هو السير وليم جونس (Sir William Jones) (١٧٤٦-١٧٩٤). وتفوق شهرته في الدراسات الهندية شهرته كمستعرب — وكان حقا ابا الدراسات الهندية في اوروبا. وقد ادى التوسع الاوروبي في الشرق الاقصى، الى اهتمام العلماء في انكلترا وفرنسا، بكل ما هو هندي كما ادى الى انبثاق فيض نشاط علمي عظيم. فقام الطلاب الانكليز في الهند وانكلترا، بدراسة النصوص السنسكريتية، وجمعوا كتب النحو بتلك اللغة وانشأوا فرعا جديدا في العلوم الشرقية، امتد في القرن التاسع عشر الى المانيا، وبقاع اخرى. وجونس هذا هو فارس حلبة اولئك المشتغلين بالعلوم الهندية. وبالرغم من ان القسم الاعظم من شغله تناول الهند، كان بالاضافة الى ذلك مستعربا له بعض المقدرة — والحقيقة انه بدأ دراسة العربية، قبل السنسكريتية. وربما كان اهتمامه بالعربية والاسلام هو الذي حمله على الذهاب الى الهند. وقد اولع جونس بالعربية منذ حداثته، عندما كان تلميذا في المدرسة فقام بتناول دروس خاصة فيها. ودرس في اكسفورد العربية والفارسية، واستدعى الى تلك البلدة مسلما سوريا ليعلمه. واهم ما نشره في العربية، هو ترجمة وافية بالانكليزية للمعلقات — وهي كما تعلمون، القصائد السبع العظيمة، المعدودة افخر ما انتجه الادب الجاهلي — وليست



غرفة الطلاب فى مكتبة وزارة الهند بلندن

هذه الخدمة التى اداها جونس للقراء الانكليز ضئيلة الاهمية، اذ بها قدم لهم تلك الدرر الثمينة، واللالىء النادرة فى عصرها . واتسع له وقته عندما كان فى الهند، لنشر عدة مؤلفات عن الشرع الاسلامى، كما نشر سلسلة كاملة من الدراسات فى مواضيع هندية .

واخيرا يجدر بنا ان نلحظ باختصار سيرة حياة ج. ل. بوركهارت (J. L. Burckhardt) (١٧٨٤-١٨١٧) رابع اولئك الاعلام المستشرقين . كان بوركهارت هذا من اصل سويسرى الا انه تثقف فى بلاد الانكليز، وتجنس بالجنسية الانكليزية . وبعد ان درس بعض السنوات فى جامعات اوروبية، ذهب الى «حلب» حيث مكث زمنا، تمكن فى خلاله من تملك ناصية اللغة العربية . وقضى معظم حياته سائحا فى سوريا، ومصر، والجزيرة العربية، وتشرف بزيارة مكة المكرمة، تحت رعاية محمد على الكبير، وعنايته الخاصة، واهم مؤلفاته هى سجلات اسفاره فى الشرق الادنى .

فكتابه (البدو والوهابيون) الذى بناه على اختباره الشخصى — يقص علينا قصة تلك الحركة الهامة بكل دقة وتفصيل وهى حركة كانت بلغت حينئذ شأوها، واول طور من اطوار قوتها وانتشارها . وقد نشر ايضا مجموعة عظيمة من الامثال العربية، جمعها اثناء رحلاته، نشر نصها العربى مع ترجمة انكليزية وشرح لها . وقد توافد الناس قريبا وبعيدا، على قراءة كتابه هذا، وقدروه حق قدره ثم ترجم من الانكليزية الى لغات اوروبية اخرى . ومات بوركهارت فى مصر، عام ١٨١٧ بعد ان قام برحلة عجيبة الى شمال السودان، نجد تقاصيلها فى كتابه المسمى (الرحلات النوبية) وهو من اوائل الكتاب الاوروبيين، الذين كتبوا عن العرب القاطنين، فى شمال السودان، وفى مملكة سنار .

اما آخر القرن الثامن عشر، فقد كان عصر اهتمام الغرب بالحضارة الشرقية فقد كان نمو نفوذ الاوروبيين فى اسيا، والتراجم العديدة التى ترجمها العلماء الذين ذكرناهم آنفا، وغيرهم ممن لم نذكر من العلماء العديدين، سببا ان جعلت الادب العربى امرا مألوفا، لدى معظم الادباء الانكليز . كما ان ترجمة الف ليلة وليلة التى ظهرت فى اوائل هذا القرن قد احدثت أثرا بليغا من نتيجته ان ظهرت مسحة شرقية فى الادب الاوروبى . فقد بدأ شعراء الانكليز وكتابهم يخرجون من القصص ما هو شرقى فى موضوعه، محاكين فى ذلك الاصول العربية والفارسية لتلك القصص . وامتدت هذه الحركة الى القارة الاوروبية، حيث اثرت كثيرا فى القصص الغرامى . حتى بلغ من ذلك ان تأثر الشاعر الالمانى الكبير جوته (Goethe) الى حد كبير بالتراجم الانكليزية والفرنسية للمؤلفات الشرقية .

وفى نهاية القرن الثامن عشر فتح الفرنسيون مصر تحت قيادة نابليون وبدأوا يحتكون احتكاكا مباشرا ببلاد ذات ثقافة عربية .

وقد كان هذا وما عقبه فى السنين التالية، من ظهور مصر كدولة قوية مستقلة، تحت حكم محمد على الكبير، سببا فى وجود دافع جديد للاقبال على لدراسات العربية .

(٤) القرن التاسع عشر

القرن التاسع عشر تطورا عظيما فى الدراسات العربية فى الاقطار الهامة من اوروبا . وكان من اثر حملة نابليون على مصر ان دخل الشرق الادنى العربى فى حيز الحركات السياسية الاوروبية . كما نجم عن تلك الحملة استعادة الاتصال المباشر بين العرب والفرنج بعد مرور عدة قرون فقام عدد كبير من الرحالة الاوروبيين بزيارة الشرق كما ازداد عدد الطلبة المصريين القادمين الى الجامعات الاوروبية ولا سيما الى غرب اوروبا، حيث ارتشفوا من مناهل ثقافة الغرب وفنونه وخلقوا فى سكان الغرب اهتماما جديدا بالثقافة العربية . وكان فى مقدمة الحركة العلمية الجديدة فى الاستشراق الاوروبى طلبة العلم الفرنسيون الذين رافقوا نابليون ولذا نجد ان من اهم المستعربين البارزين فى اوائل القرن التاسع عشر هم الطلبة الفرنسيون . وقد قام سلوستر دى ساسى (Silvestre de Sacy) اعظم المستعربين الفرنسيين بتدريب جيل باكمله من طلبة العلم على مختلف جنسياتهم .

وفى انكلترا ايضا نجد رهطا بارزا من المستعربين . وانشىء منصب جديد للاستاذية العربية فى جامعة لندن التى كانت قد اسست حديثا . كما ان تأسيس الجمعية الاسيوية الملكية — وهى جمعية المستشرقين الانكليز — اوجد دافعا جديدا نحو العلوم الشرقية . وقد وجد الطلبة الانكليز فى الهند لدى دراستهم لغات مسلمى الهند ومدنيتهم، ان ابحاثهم وتنقيباتهم تحتم عليهم دراسة العربية التى هى اساس الثقافة الاسلامية فى اى لغة من اللغات . وكان لمؤلفات المستعربين فى القرن التاسع عشر قيمة واهمية حديثتان ومن

جراء التطورات التي حدثت للعرب انفسهم . اذ في هذا القرن (اى التاسع عشر) دخل الناطقون بالضاد دورا جديدا من النهضة الثقافية والقومية بعد ان عاقهم عن ذلك بادئ ذى بدء عدم وجود كتب مطبوعة باللغة العربية، بل عدم وجود مطابع اصلا، ولذا كان كبير الفضل للطبعات الفاخرة العديدة للآداب العربية التى طبعت فى اوروبا ولاسيما فى انكلترا . اذ كانت ذات فائدة عظمى للجيل الجديد من القراء العرب، كما جهزتهم بمواد لم يمكن الحصول عليها فى اى محل آخر وبعد ان أسست المطابع فى الشرق وبوشر طبع الكتب المحلية كانت هذه فى الغالب مبنية على النصوص الاوروبية . وهكذا لعب المستشرقون دورا هاما فى اعادة الثقافة العربية للعرب انفسهم . وبذا قاموا بتسديد بعض ما هم مدينون به للعرب الذين اطلعوا الغرب على كتب اليونان .

ونظرا لضيق الوقت لدينا لا يمكننا الا ان نمر مر الكرام على بعض من برزوا على غيرهم من المستعربين الانكليز العديدين فى هذا العصر، فنذكر رجالا مثل هندلى (J. H. Hindley) الذى كان على اطلاع عظيم باللغتين الفارسية والعربية والذى شملت مؤلفاته تاريخ حياة الشاعر العربى المشهور ابى الطيب المتنبى وبحثا عنه، الفهما هندلى باللغة الانكليزية . ونذكر ايضا لمسدن (M. Lumsden) الذى كان استاذا للعربية والفارسية فى كلية فورت وليم (Fort William) بالهند، والذى جمع كتاب نحو بالعربية كثر استعماله فى اوروبا والهند فى القرن التاسع عشر.

وجدير بالذكر ان مجهودات الانكليز فى تنظيم التعليم فى الهند قد هيأ الفرصة لمسلمى الهند لدراسة العربية وكان لمسدن هذا احد الانكليز العديدين الذين اشتركوا فى ذلك التنظيم . فكان لكلية فورت وليم وهى اول كلية انكليزية فى الهند منصبان للاستاذيتين العربية والفارسية .

اما اعظم المستشرقين قاطبة فى انكلترا فى القرن التاسع عشر وربما فى اوروبا ايضا فهو لاين (E. W. Lane) (١٨٠١-١٨٧٦) فقد احس منذ حداثته بهوى فى نفسه للدراسات الشرقية ولا سيما المصرية . فأبحر فى يوليو ١٨٢٥ قاصدا الاسكندرية وكانت هذه اول زياراته لمصر . ولم تكن سفرته

البحرية هذه خالية من الخطر والمجازفة اذ لم يكن السفر فى عرض البحر الابيض المتوسط سهلاً آمنا فى ذلك الحين . وحدث فى اثناء السفرة ان هبت على السفينة اعاصير شديدة اعجزت القبطان عن العمل ولم يكن هنالك من يعرف اى شيء عن الملاحة . فتسلم لاين دفة السفينة بالرغم من انه لم يقد سفينة من قبل . وبفضل معرفته للرياضيات نجت السفينة من الدمار . وفى اواخر السفرة حدث تمرد عرض حياته الى الخطر ووصل لاين على مصر بعد سفرة استغرقت شهرين ملأتها المغامرات . وبقى فى مصر حتى خريف ١٨٢٨ وقضى معظم وقته فى القاهرة كما انه زار محلات اخرى ايضا . وكانت نيته معقودة اصلا على دراسة قدماء المصريين ولكنه وجد اخلافهم الحديثين امتع والذ للدراسة فقام منذ اول سكناه فى مصر بدراسة العربية دراسة واسعة. فتملك ناصيتها كتابة وكلاما. وقد اكسبته زيارته الاولى للمشرق خبرة معنوية عظيمة فهو يقول فى مفكراته (لدى وصولى الى البر شعرت بهزة تسرى بين جوانحى فكاننى كنت عروسا شرقيا على اهبة اماطة اللثام عن جبين عروسه فيراها للمرة الاولى) وقد ادهش لاين ما رآه فى البلد الجديد كما اثار اعجابه جميع المظاهر الاسلامية .

وعند عودة لاين الى انكلترا كان قد درس شؤون مصر دراسة وافية عميقة تناولت كلا من السكان واللغة . وجمع فى مخطوطاته وصفا عما كان قد رآه فى الشرق . ولكن ميله الشديد الى الدقة العلمية التى تجلت فى كل مؤلفاته جعلته يصر على زيارة مصر ثانية قبل نشر كتابه هذا فأقام فى مصر من سنة ١٨٣٣ الى ١٨٣٥ تفرغ فيها لدرسة الحياة فى القاهرة دراسة مباشرة عن ذى قرب. وكان من عادته فى مصر ان يتقيد بلبس ما يلبسه المصريون فقط . ولا يختلط الا بالمصريين المسلمين . وسكن فى بيت بالقاهرة وعاش عيشة اديب مصرى . فهذه الاشياء تشفعها طلاقة لسانه ودقة لغته العربية والمسحة العربية التى علت ملامحه . كل هذه مكنته من المعيشة كمصرى بين المصريين وان يمتزج بالطبقات المصرية فى القاهرة على مستوى الصداقة والمساواة . وكان يدعوه اصدقاؤه المصريون العديدون بمنصور افندى . وعندما عاد الى انكلترا للمرة الثانية نشر كتابه الذى حاز شهرة واسعة وهو

(فى اخلاق وعادات المصريين الحديثين) وضعه مجلدين وكان نشره سنة ١٨٣٦ . وقد عد هذا الكتاب تحفة ثمينة بحيث ان الطبعة الاولى منه نفدت فى ظرف اسبوعين فاعيد طبعه عدة مرات — كما طبع مرارا فى المانيا وامريكا — وهو يعد ذخرا فى الادب الانكليزى . ويحتوى هذا الكتاب على وصف لحياة سكان القاهرة وعاداتهم فى الزمن الذى سبق حدوث تلك التغييرات التى جعلت من القاهرة مدينة حديثة . ولهذا فهو سجل صادق دقيق فى كل تفاصيله عن جيل غبر . وهو مستند تاريخى من الاهمية بمكان عظيم ولا يزال مرجعا قيما لا غنى عنه لمن عنوا بدراسة تاريخ مصر .

ادوارد لاين (E. W. Lane)

ولم يمض وقت طويل على عودة لاين الثانية الى انكلترا حتى تفرغ لتحضير ترجمة بالانكليزية لالف ليلة وليلة . ولم تكن ترجمته هذه الاولى من نوعها اذ كان قد سبقها ترجمات طبعت ولاقت رواجا واستحسانا بين القراء ولكن هذه الترجمات خلت من الدقة الفنية ، فاخذ لاين على عاتقه اظهار ترجمة تحتفظ بمعنى الاصل وفحواه ومحيطه . واضاف الى ترجمته شروحا وتفاسير ضافية عن العادات الاسلامية فى القرون الوسطى واعيد طبع هذه الحواشى فيما بعد على حدة تحت عنوان (الحياة العربية فى القرون الوسطى) .

وفى اثناء ذلك فكر لاين مدة من الزمن فى جمع قاموس عظيم عربى -

انكليزى اذ ان القواميس العربية التى كانت قد الفها قبلا كل من جوليوس و فريتاج (Freytag) وغيرهما ـ وان كانت نافعة فى نوعها الا انها كانت مبنية على مواد غير وافية كما انها كانت ناقصة من نواح عدة . وكانت فكرة لاين تدور حول البحث بدقة فى المعجمات العربية الادبية كتاج العروس وغيره . ومن ثم يبنى عليها معجمه الخاص فحدت به هذه الفكرة الى الذهاب الى مصر للمرة الثالثة . فسافر اليها فى يوليو ١٨٤٢ ومكث هناك من ١٨٤٢-١٨٤٤ اشتغل فيها فى القاهرة بين اثنتى عشرة واربع عشرة ساعة يوميا دون ان يترك داره الا فما ندر . واخيرا بعد ان جمع كل ما خاله ضروريا من المواد والمعلومات من القواميس العربية عاد الى انكلترا وافرغ الخمس والعشرين سنة التى تبقت من حياته لتكميل معجمه ـ ولا يخفى ان تلك المواد التى جمعها لم تكن منشورة او سهلة المنال ـ والحقيقة ان عمله هذا لعظيم شاق فان دراسة القواميس العربية امر لا يستهان به ومع ذلك فلم يكن هذا الا الخطوة الاولى اذ بقى بعد ذلك العمل الشاق المضنى من خلق معجم منظم منسق على الطراز الاوروبى مما كان تحت تصرفه من ركامات مشوشة من المواد . ولم يكن عمله هذا قد انتهى تماما عندما مات ١٨٧٦ . ولكن المجلدات المتعددة التى نشرت من معجمه، ادت خدمة قيمة جدا للعلوم الشرقية، ولا يزال يعتبرها العالم عدة لا غنى عنها لكل من عنى بدراسة العربية . ومنذ ذلك اليوم حتى الان لا يزال معجم لاين اجود المعاجم المتناولة كما انه قاعدة بنيت عليها معظم القواميس العربية الاحدث عهدا باللغات الاوروبية .

واذا استشهدنا بكتاب بعث به اليه مستعرب المانى بارز علمنا ان لاين قد بلغ فى اخريات حياته ان اقره العالم (استاذ الدراسات العربية الاعظم) وقد خلدت الجمعيات العلمية ذكراه فى كثير من العواصم الاوروبية. وسنتناول فى حديثنا القادم اعمال بعض المستعربين الآخرين من الانكليز فى هذا القرن (اى التاسع عشر).



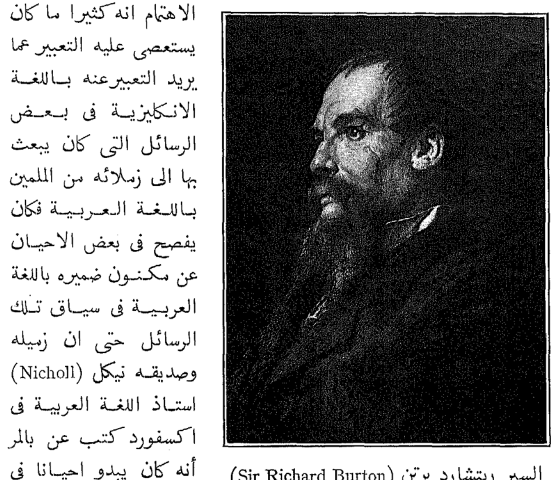
سنحاول

(٥) تابع القرن التاسع عشر

فى هذا الحديث متابعة الكلام عن الدراسات العربية فى انكلترا خلال القرن التاسع عشر وهو الموضوع الذى بدأنا استعراضه فى الاسبوع الماضى، يعتبر ادورد هنرى بالمر (E. H. Palmer) او الشيخ عبد الله، كما كان يعرف فى الشرق، من ابرز علماء هذا العهد وانبههم ذكرا. ولد بالمر فى كامبردج عام ١٨٤٠ وتوفى فى مصر عام ١٨٨٢ وهو نفس العام الذى قامت فيه ثورة عرابى باشا وكان بالمر مولعا منذ طفولته بتعلم اللغات وكانت له قدرة عجيبة على الالمام بها وسرعان ما اتقن اللغتين الفرنسية والايطالية حتى كان ينطق بهما فى طلاقة وذلاقة. وما ان اشرف على العشرين حتى تعرف بهندى مسلم يدعى السيد عبد الله كان يشغل وظيفة محاضر فى اللغة الهندستانية بجامعة كامبردج. وللسيد عبدالله يرجع الفضل فى اثارة اهتمام بالمر اول الامر بدراسة اللغات الشرقية. اخذ بالمر منذ ذلك الحين فى دراسة اللغات العربية والفارسية والاردية فى وقت واحد وما انقضت فترة قصيرة من الزمن حتى كان قد اخذ فى نقل طائفة من الاشعار الانكليزية الى اللغة العربية التى كان يقول عنها انها احب اللغات الى نفسه. ولم يقف مجهوده عند هذا الحد بل عمد فعلا الى قرض الشعر العربى. بيد انه ما لبث ان قرر فى نفسه ان احسن وسيلة لحذق اللغة العربية هى الاحتكاك بالعرب انفسهم وتلقنها منهم مباشرة فاتصل على الفور بكثير من اعضاء الجالية العربية المقيمين بانكلترا فى ذلك العهد وكان من بين اولئك النفر رجل سورى من اهل حلب يدعى رزق الله حسن الحلبى. توثقت عرى الصداقة بينه وبين بالمر الى حد بعيد حتى تأثر هذا الاخير تأثرا ملموسا بشخصية الحلبى تلمسه فى اخلاقه وكتاباته. وتعلم بالمر من رزق الله الشيء الكثير

وكان به جد معجب . ثم ان بالمر انتظم فى سلك جامعة كامبردج بعد هذا العهد بفترة وجيزة واخذ يواصل دراساته الشرقية بطريقة منظمة كانت اجدى عليه وانفع ولم يكن لبالمر مطمح اعز على نفسه من زيارة البلاد العربية والاتصال بابناء تلك الامة التى اعجب بلسانها وادب لغتها . وسنحت له عام ١٨٦٩ فرصة للذهاب الى الشرق الادنى نائبا عن جمعية البحث عن الاثار الفلسطينية فانتهزها فى الحال وكانت فاتحة لتعرفه على اللهجات العربية المختلفة ودراسة الثقافة العربية فى نطاق اكثر اتساعا . وما ان عاد الى انكلترا بعد ذلك الحين ببضع سنوات حتى عين استاذا للغة العربية بجامعة كامبردج حيث قسم جل وقته بين التدريس وتحصيل العلوم وبين ممارسة الصحافة وتأليف بعض كتب لها قيمتها واهميتها . على انه عاد الى مصر مرة ثانية عام ١٨٨٢ وقام بمغامرة جريئة مخترقا شبه جزيرة سينا على صهوة جواد اعده لهذا الغرض وكان على معرفة تامة بهذه المنطقة لكثرة ما تجول فيها خلال زيارات سابقة وتعود الناس رؤية الشيخ عبد الله على ظهر جواده فى الصحراء لكثرة ما قطعها حتى كاد يصبح فى اعينهم من قبيل اساطير الاولين على ان خاتمة حياته كانت من المآسى الحزينة المؤلمة . اذ كان هذا العهد عهد قلاقل واضطرابات فى الشرق الادنى فلا غرو اذا استهدف المتجول فى الصحراء الى كثير من الاخطار غير العادية . ولقد لاقى بالمر حتفه فى عودته وسط الصحراء على ايدى بعض المجرمين من البدو وهكذا اختتمت حياة شخصية فذة فى فجر رجولتها .

ولعل بالمر ينفرد من بين مستشرقى اوروبا بانه الرجل الوحيد الذى لم يكتف فى هذا الوقت بدراسة اللغة العربية دراسة علمية فحسب بل تغلغل الى صميم روح اللغة العربية عن طريق الاتصال بابناء الشعوب العربية نفسها وهو من الغربيين القلائل الذين استطاعوا ان يكتبوا اللغات الشرقية فى سهولة ويسر كتابة صحيحة لا شائبة فيهاولقد صادف بعض ما كتبه بالمر باللغة الاردية اقبالا عظيما من ابناء الهند حتى ان وصفه لزيارة شاه فارس لانكلترا يعتبر من القطع الخالدة فى الادب الأردى . وكان بالمر يكتب ويقرض الشعر باللغتين الفارسية والعربية . ومن الامورالشائقة التى تسترعى


السير ريتشارد برتن (Sir Richard Burton)

الاهتمام انه كثيرا ما كان يستعصى عليه التعبير عما يريد التعبير عنه باللغة الانكليزية فى بعض الرسائل التى كان يبعث بها الى زملائه من الملمين باللغة العربية فكان يفصح فى بعض الاحيان عن مكنون ضميره باللغة العربية فى سياق تلك الرسائل حتى ان زميله وصديقه نيكل (Nicholl) استاذ اللغة العربية فى اكسفورد كتب عن بالمر أنه كان يبدو احيانا فى مكاتباته له قلقا كمن يضيق ذرعا بالكتابة بالانكليزية فكان ينفجر وتتغلب عليه عاطفة فجائية فيورد بعض العبارات باللغة العربية اما نظما واما نثرا وخاصة اذا اراد تناول شىء بالنقد او التعليق .

ولقد خلف لنا بالمر على قصر حياته طائفة صالحة من المؤلفات ربما أعتبر من اروعها واهمها ذلك السفر الجليل الذى طبعه قبل وفاته بفترة قصيرة وضمنه شعر بهاء الدين زهير الشاعر الغزلى المصرى المعروف مقرونا الى ترجمة شعرية باللغة الانكليزية مع مقدمة مسهبة وبعض ملاحظات ولقد كان طبع هذا المؤلف خطوة هامة فى احياء تراث ثقافة العرب. وفى العام التالى لطبع هذا الكتاب اخرج بالمركتابا باللغة الانكليزية عن قواعد اللغة العربية وكان ابرز ما فى هذا الكتاب انه لم ينسج على منوال المؤلفات السابقة بل على الطريقة التقليدية التى درج عليها علماء النحو العربى محاولا بذلك تقديمه

الى الطلبة الانكليز فى الصيغة التقليدية التى يدرس بها الطلاب العرب انفسهم . وقد اعيد طبع هذا الكتاب بتوسع فى السنة السابقة للسنة التى قتل فيها . وألف بالمركتابا آخر فى اسلوب رقيق عن حياة هارون الرشيد اشهر خلفاء بنى العباس اودعه صورة رائعة خلابة لعاصمة ملكه . ومن بين مؤلفاته ايضا ترجمة لقصائد شعرية منقولة عن العربية والفارسية ومعجم للغة الفارسية وفهرست للمخطوطات الشرقية الموجودة بكامبردج ورسالة مسهبة عن رحلاته فى شبه جزيرة سينا. ولقد كان لنبأ مقتله رنة حزن واسى بين اصدقائه العديدين والمعجبين به فى جميع انحاء العالم، فرثاه الشعراء فى مختلف الامم، بلغات لا تقل عن الخمس عشرة لغة، من بينها اللغة العربية .

ومن العلماء النابهين ايضا والذين يعتبرون فى المنزلة الاولى من الاهمية ولم رايت (William Wright) المولود عام ١٨٣٠ والمتوفى عام ١٨٨٩ . ولد رايت فى الهند من ابوين بريطانيين اذ كان والده ضابطا فى الجيش البريطانى المرابط بذلك البلد وكانت والدته خبيرة بعدة لغات شرقية ولها يرجع الفضل فى تشجيع ابنها على الدراسات الشرقية منذ فجر صباه . درس رايت اللغة العربية فى الجامعات الانكليزية والاوروبية وعمل مدة من الزمن فى مدينة ليدن تحت اشراف المستشرق الهولندى العظيم دوزى (Reinhart Dozy) ثم عين استاذا للغة العربية فى جامعات لندن ودبلن وكامبردج على التتابع .

ومن الشواهد الناطقة بشدة شغفه باللغة العربية ذلك الخطاب الذى بعث به الى صديق له، وهو لايزال بعد فى الثانية والعشرين من عمره، يبسط له فيه مشروعا يتطلب دراسة عميقة واسعة النطاق يكرس فيها حياته للغة العربية . والحق ان المشروع كان عظيما يدل على مدى مطمح . والعجيب فى امر هذا المشروع ان رايت قد استطاع تحقيقه فى السنوات التالية الى حد بعيد جدا . فمن جدواه على الادب العربى اخراجه رحلة ابن جبير والكامل للمبرد وقد اشترك مع دوزى فى اخراج تاريخ الاندلس للمقرى كما طبع عددا من كتب المراجع العربية ولا يزال يعتبر كتابه عن النحو العربى المؤلف فى مجلدين فى مقدمة كتب النحو التى يمكن الحصول

عليها وهو يدرس لطلبة اللغة العربية فى جميع البلاد التى يتكلم ابناؤها بالانكليزية .

واخلف رايت على كرسى استاذ اللغة العربية بجامعة كامبردج الاستاذ روبرتسون سميث (Robertson Smith) المولود سنة ١٨٤٦ والمتوفى سنة ١٨٩٤ وهو اسكتلندى الاصل انحدر من ابردين ودرس اللغة العربية بجامعتها اولا ثم بجامعات اوروبا حيث نال شهرة غير يسيرة دفعت جماعة من المعجبين به الى اهدائه فى حفلة عامة بادنبرة سنة ١٨٨١ مجموعة كتب ومخطوطات عربية رمزا على تقديرهم لمجهوداته وقام روبرتسون سميث خلال عام ١٨٧٩ و ١٨٨١ بزيارات عديدة الى الشرق الادنى جاب فيها مصر وفلسطين وسوريا وبلاد العرب نفسها متغلغلا الى جدة والطائف . وله عدة مؤلفات عن انساب العرب وزواج الجاهلية وما الى ذلك مما يتصل بتاريخ العرب قبل الاسلام، كما انه كان رئيسا لواضعى الموسوعة البريطانية — الانسيكلوبيديا بريتانيكا — وهو على ما يقال الرجل الوحيد الذى قرأ الموسوعة من بدايتها الى نهايتها . والحق انه كان اعجوبة عصره لسعة علمه واطلاعه وكثيرا ما كان يدهش اصدقاءه وزملاءه بتعمقه وتشعب معلوماته واحاطته بتفاصيل موضوعات لا حصر لها ولا عد، يروى عنه انه وهو فى غيبوبة النزع الاخير سرد موضوع محاضرة مسهبة عن تاريخ القرون الوسطى فى انكلترا .

ولعل من الخير ان نختتم حديث اليوم بذكر السير وليم موور (Sir William Muir) المولود سنة ١٨١٩ والمتوفى عام ١٩٠٥ وهو كذلك اسكتلندى الاصل امتاز بخدماته الجليلة فى بعض مناصب الادارة بالهند كما امتاز بالعلم فى جامعة ادنبرة وله عدة مؤلفات باللغة الانكليزية عن الرسول صلى الله عليه وسلم وعن التاريخ الاسلامى تعتبر غالبيتها الى اليوم من المراجع التى يرجع اليها فى الجامعات الانكليزية والهندية وخاصة مؤلفه الممتع عن حياة النبى صلى الله عليه وسلم، لخلوه من التعصب، كما يعتبر مؤلفه عن تاريخ الخلافة الذى استند فيه الى المصادر العربية وكثير من المخطوطات اروع ما كتب عن هذا الموضوع باللغة الانكليزية حتى اليوم .

(٦) القرن التاسع عشر وما بعده

فى الاحاديث السابقة بصفة خاصة صحيفة اعمال هؤلاء المستشرقين الذين عنوا بالدراسات العربية من الوجهة العلمية البحتة . واليوم ننتقل بالقارىء لحظة لنستعرض بايجاز سيرة ثلاثة من الانكليز ممن نشأ اهتمامهم باللغة العربية والبلاد العربية عن بواعث غير التى ذكرناها . واتجهوا فى اعمالهم وجهة تختلف عمن درسناهم فى الحلقات السابقة .

واول اولئك الثلاثة، واشهرهم جميعا هو السير ريتشارد برتن (Richard Burton) المولود عام ١٨٢١ والمتوفى سنة ١٨٩٠ .

بدأ السير ريتشارد دراسة اللغة العربية بجامعة اكسفورد، ولكنه غادر الجامعة قبل اتمام دراسته ليلتحق بالجيش البريطانى فى الهند، حيث اقام عدة سنوات فى الاحياء الاسلامية، متفرغا الى دراسة العربية والفارسية وغيرهما من شعبة اللغات الاسلامية على ايدى مدرسين مسلمين .

ولما عاد الى انكلترا نشر اربعة كتب عن الهند . وفى عام ١٨٥٣ زار مصر لاول مرة، وهناك سافر من القاهرة الى السويس على ظهر جمل، فوصلها بعد رحلة شاقة مليئة بالحوادث، ومن ثم استقل سفينة الحج الى ينبع، ومنها اخترق الحجاز لزيارة المدينة، فمكة المكرمة ثم عاد الى انكلترا عن طريق جدة ومصر .

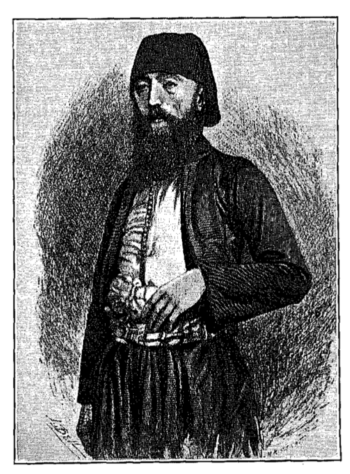
وما استقر به المقام، حتى اخذ فى نشر ما وقع له اثناء رحلته، فى ثلاثة مجلدات صادفت رواجا عظيما، حتى أنه اعيد طبعها عدة مرات وهى لا تزال تعتبر مرجعا لكل من اراد التعرف على البلاد التى وصفها فى مؤلفه .

واخذ السير ريتشارد برتن منذ ذلك العهد يجوب البلاد ويتجول فى ارجائها، فمرة نراه يقوم برحلة استكشافية الى مجاهل افريقيا الشرقية والحبشة، متنكرا بزى تاجر عربى حيث جمع طائفة من المعلومات القيمة عن هذه المناطق، ومرة نراه يقوم بالتجول فى اواسط افريقيا وغربها، ومرة اخرى فى مناطق قلما سمع بها احد فى الامريكتين وغيرهما من البلاد .

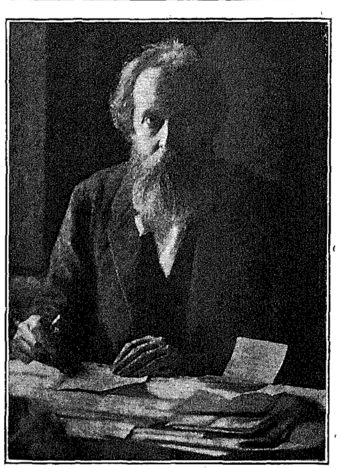
ونراه فى ١٨٥٥ يقتحم غمرات حرب القرم فى صفوف الجيش البريطانى ثم نراه فى الفترة بين ١٨٦٩-١٨٧١، يتجول هو وزوجه، فى دمشق وسوريا بصحبة ادوارد بالمر وقد طبع هو وزوجه، كل منهما على حدة، كتابا عن وصف ما شاهداه .

وما انقضت ست سنوات على ذلك العهد، حتى كان السير ريتشارد قد عاد الى مصر مرة اخرى، وقام بمسح جيولوجى لاراض لم تكن قد مسحت من قبل .

وهكذا كانت حياته سلسلة مخاطرات ومغامرات واسفار واستكشافات فى جميع اركان العالم، وفضلا عن ذلك، فقد وجد من وقته متسعا لنشر عدة كتب، سبق لنا ذكر بعضها . وتتضمن الاخرى ترجمة كاملة لالف ليلة وليلة، التى تعتبر فريدة فى نوعها بين الترجمات الاوروبية الاخرى لمطابقتها للاصل لدرجة سببت شيئا من التغاضى بين الكتاب المحافظين من معاصريه .



ادوارد بالمر (Edward Palmer)

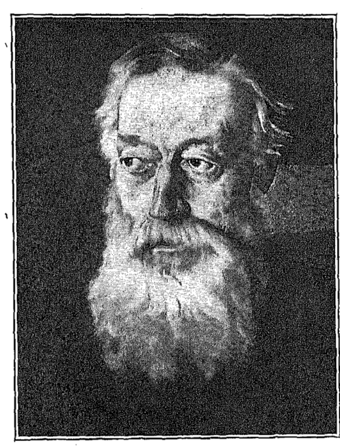

ويلفرد بلنت (Wilfred Scawen Blunt)

ومن الشخصيات الاخرى التى جابت الشرق الادنى ويلفرد سكاوين بلنت (Wilfred Scawen Blunt) المولود سنة ١٨٤٠ والمتوفى عام ١٩٢٢ فقد بدأ حياته كسياسى، مظهرا اهتماما كبيرا بحالة الشعوب المضطهدة فى العالم، وقضى بقية ايام حياته مدافعا عن حقوقها .

وكان اهتمامه متجها بصفة خاصة، الى الهند وارلندا ومصر كما كان سائحا نشطا زار بلادا عدة مع زوجته، فطاف جميع بلاد الشرق الادنى وشمال افريقيا وفى عام ١٨٧٨ زار نجد، واستقبل بحفاوة فى الحائل من اميرها الذى اهداه كرام الجياد العربية، ومهد له طريقا آمنا الى بغداد .

وفى خلال سفراته الى الهند ومصر، اتصل اتصالا وثيقا بزعماء الحركة الوطنية فى افغانستان ومصر، وخاصة بجمال الدين الافغانى وعرابى باشا كما نشر عدة كتب عن القضية المصرية . وفى عام ١٨٨١ استقر به المقام فى القاهرة، فى بيت له بالقرب منها، فعاش وتزيى بالزى المصرى ولم يكن يتكلم الا العربية .

اما زوجه اللادى ان بلنت (Anne Blunt)، فكانت مستعربة الى اقصى حدود العروبة فضلا عن انها كانت ماهرة فى ركوب الخيل خبيرة بالاسفار ونشرت عدة كتب، منها كتاب عن العراق، وآخر عن نجد وترجمة انكليزية للمعلقات السبع، التى وضعها زوجها بعد ذلك فى قالب شعرى .


تشارلز داوتى (Charles E. Doughty)

وثالث شخصياتنا تشارلز داوتى (Charles Doughty) المولود عام ١٨٤٣، والمتوفى ١٩٢٦، الذى نذكره دائما لكتاباته عن الصحراء العربية فبعد ان امضى سنة تحضير فى دمشق درس فيها العربية دراسة وافية، قام برحلة استطلاع الى اواسط جزيرة العرب وكان يأنف من اخفاء جنسيته ودينه، كما كان يفعل من سبقه من الانكليز ولم يكن فى ظهوره كانكليزى مسيحى، ما يقلل من الاخطار التى زحفت برحلاته اينما حل .

وفى عام ١٨٧٨، بعد ان عاد الى انكلترا نشر كتابا عن رحلاته بلغ فيه اقصى حدود المعرفة فى ذلك الوقت عن جزيرة العرب تناول فيه معلومات جغرافية وجيولوجية لم تكن قد عرفت من قبل، ولم تكن ملاحظاته عن العرب وحياتهم واخلاقهم وعاداتهم باقل اهمية . وقد ظهرت نسخة جديدة لهذا الكتاب منذ عشرين سنة مضت، كتب مقدمتها لورنس المعروف للعرب .

ويجدر بنا الآن ان نعود الى موضوع دراسة العربية فى الجامعات فنقول انها فى السنوات الاولى من القرن العشرين، بلغت مستوى لا يقل عنه فى ازهى مراحل القرن التاسع عشر، فقد انشئت اقسام جديدة للعربية فى الجامعات الاسكتلندية، واغلب الجامعات الانكليزية كما انشئت خلال الحرب الماضية كلية جديدة فى جامعة لندن، خصصت لدراسة اللغات الشرقية اطلق عليها اسم معهد اللغات الشرقية .

والشخصيات التى سنتناول الحديث عنها الآن، حديثة لاتزال ماثلة للاذهان، يذكرها طلبتها فى انكلترا والشرق بكل خير .

فكان السير توماس ارنلد (Thomas Arnold) الذى توفى عام ١٩٣٠، هو اول من جلس فى كرسى الاستاذية فى قسم الداسات العربية والاسلامية فى مدرسة اللغات الشرقية بلندن . تعلم فى كامبردج وقضى سنوات عدة فى الهند استاذا للفلسفة بكلية على كره الاسلامية بالهند .

ومن اشهر مؤلفاته كتاب «دعوة الاسلام» الذى نال اقبالا عظيما، وترجم الى التركية والاردية، وكتاب آخر عنوانه «الخلافة»، استقصى فيه تاريخها فى مختلف العصور، وتناول بالبحث والتمحيص وجهات النظر القانونية والفلسفية للخلافة الاسلامية . كما نشر عدة كتب قيمة عن الفن والرسم الاسلامى ضحى من اجلها سنوات عديدة من حياته التى انطفأ سراجها بعد قليل من زيارته الاخيرة للقاهرة عام ١٩٣٠، عندما امها زائرا لمعاهدها العلمية.

وكان جاى لى سترانج (Guy Le Strange) الذى توفى عام ١٩٣٤، مستشرقا ممتازا قضى اطيب سنوات حياته مشتغلا بدراسة الاحوال الجغرافية لبلاد العرب وفارس وتحفظ له هذه الجملة دليلا على مبلغ اهتمامه بهذه الناحية من الدراسات، «لكى نفهم ونستسيغ التاريخ الاسلامى، يجب ان ندرس التاريخ الجغرافى للعصور الوسطى دراسة وافية» .

جيبون (Gibbon) .

وقد نشر عدة كتب صادفت رواجا لدى الاوساط العلمية وغيرها، منها كتاب «بغداد ايام العباسيين» و «الحكم الاسلامى فى فلسطين»، وكتاب «بلاد الخلافة التركية» كما نشر عدة ابحاث جغرافية ورسائل اخرى، وقضى ايام حياته من ١٩١٢، الى ان توفى كفيف البصر، الامر الذى لم يعقه عن مواصلة دراساته وابحاثه. وتوفى فى نفس السنة التى قضى فيها لى سترانج، مستعرب آخر معروف هو انتونى بيفن (A. A. Bevan) الذى تتلمذ على وليم رايت ومن اهم ما اخرجه لنا من شعر القدماء، كتاب «نقائض جرير والفرزدق» وكان اهتمامه به عظيما لدرجة ان زميله ادوارد براون (E. G. Browne) العلامة المعروف فى اللغة الفارسية، يروى عنه قصة فحواها انه دخل عليه ذات يوم فرآه تلوح عليه امارات الحزن واليأس، فاستفسر براون فى لهفة عما الم به، فعلم اخيرا انه وجد فى كتابه النقائض بعد نشره، شيئا من الاختلال فى وزن احد الابيات.

ولو ان لدينا متسعا من الوقت لتحدثنا عن الكثيرين من المستعربين فى هذا العصر، عن ليال (Lyall) الذى حرر المفضليات، و لاين بول (Lane-Poole) المؤلف الكبير عن التاريخ الاسلامى، و امدروز (Amedroz) السويسرى الذى نشر عدة تحريرات عربية تاريخية. وهناك استاذ كبير آخر يستحق الذكر، خصوصا وانه توفى منذ شهور قلائل وهو العلامة مارجليوث (Margoliouth) استاذ اللغة العربية فى اكسفورد منذ سنين عديدة، وكان يعتبر اماما لعلماء اللغة العربية من الانكليز كما كان عضوا للمجمع العربى فى دمشق يتمتع بشهرة واسعة بين الاوساط الادبية فى الشرق. وفضلا عن انه نشر عدة رسائل بالانكليزية عن الدين والتاريخ الاسلامى فانه ترجم عدة كتب عربية قيمة بينها «معجم الادباء» لياقوت «ورسائل ابى العلاء» واحاديث «التنوخى». اما المعاصرون امثال نيخلسون (Nicholson) وجيب (Gibb) وستورى (Storey) وغيرهم من الكثيرين القائمين باخراج الدرر العربية القيمة للعالم، فالحكم عليهم من حق الاجيال القادمة. على اننا نستطيع ان نقطع بان الثقة ما زالت قوية فى مواصلة العلماء جهودهم الجبارة فى البحث والتنقيب عن آثار العرب الذين دمغوا بها العصور.